الأدب المقارن سنة ثالثة.....(أ.حميدة سليوة)

محاضرة:

الأدب المقارن النشأة والتطور

يرتبط نشوء الأدب المقارن بظواهر التأثير والتأثر بين آداب الشعوب المختلفة لغويا وعرقيا وثقافيا، وهذه الأخيرة قديمة جدا قدم الأدب الإنساني، ألم يتأثر الأدب الروماني بالأدب اليوناني القديم؟ أو لم يتفاعل الأدب العربي مع جاره الفارسي، والأمر ذاته مع الآداب الحديثة والمعاصرة، وهكذا شكلت هذه العلاقات العفوية مادة للأدب المقارن كمجال معرفة، وذلك أن الظروف التاريخية لم تكن لتسمح بظهور هذا المجال قبل القرن التاسع عشر، وان كانت له مقدمات قبل هذا التاريخ.

1-إرهاصات الأدب المقارن:

ظهور مصطلح الأدب المقارن مع أبال فيلمان Abel Villemain عام 1828، في واحدة من محاضراته حول علاقات الأدب الفرنسي مع الآداب الأوروبية الأخرى، لا يعني أن تاريخ الدراسات المقارنة بدأ مع فيلمان، فمحاولات المقارنة بدأت مع عصر النهضة(القرن 15 و16)، وهي فترة الأدب الكلاسيكية(1660-1680)، حيث لمعت مجموعة الثريا La pléiade الفرنسية في محاكاة الأدب اليوناني واللاتيني القديم ضمن ما يسمى بنظرية المحاكاة Imitation:« **أصبح الاهتمام الرئيس ينصب على تأسيس وتطوير ونشر نظرة إلى الأدب موروثة عم عهد الأغريق والرومان، وكانت المصادر الرئيسية في الأفكار.....وكان موضوع المناقشة الكبير هو العودة إلى الأقدمين ومحاكاتهم**»[1]، وهكذا عملت المؤسسة الأدبية في فرنسا على تكريس نموذج أدبي مطلق، بالإضافة إلى النزعة اللغوية المتعصبة للغة الفرنسية لغة الأدب والأرستقراطية.

واستمر الآداب القديمة تمارس تأثيرها ووهجها ضمن ما يسمى بعصر الأنوار(1751-1772-حيث اتجه النقد إلى الفصل بين الفنون الأدبية بتأثير من النماذج القديمة، ومن أثاره الايجابية :«**ترسيخ الإيمان بقدرة الإنسان على التقدم والتطور، والإيمان بأولوية الفكر العقلاني وما ترتبط**

1-أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، دار أسامة للنشر والتوزيع ونبلاء ناشرون وموزعون عمان الأردن، ط 1، 2015

به من مقتضيات البحث التجريبي والحس النقدي»[1]، وتخلص الفكر من الظلامية والأحادية التي دفعت فرنسا إلى الخروج من التمركز على الذات، وبالتالي تجاوز حدود الأنا والانفتاح على الآخر والأدب الآخر، وهي خطوة مهمة في التحولات الفكر الأدبي، والممهد للانفتاح الأدبي على الآداب الأجنبية من أجل إغناء الأدب وبالتالي إقامة قنوات تواصل بينها وبين الأدب القومي، ومن أهم العوامل الممهدة لظهور الدراسات المقارنة كان ظهور علم تاريخ الأدب(ق18) المساهم الأهم في ميلاد الأدب المقارن:« **طبيعيا أن لا يجد الأدب المقارن، وهو جزء من تاريخ الأدب عامة سبيله إلى الوجود، ذلك أنه لا يمكن أن تجرى المقارنات في غياب تواريخ الآداب الوطنية»**[2] ، والاتجاه إلى التأريخ للأدب الوطني دفع الباحثين فيه إلى البحث في تاريخ علاقات الأدب الفرنسي مع الآداب الأوروبية الأخرى كالاسبانية والانجليزية منها[3].

وتوثقت العلاقات بين الآداب الأوروبية في المرحلة الرومنسية، التي ساهمت في تطور تاريخ الأدب والنقد الأدبي، والتخلي عن الآداب القديمة بل والاطلاع على الآداب الأجنبية، وإعطاء الفرصة لكل أدب دون تفريق ولا مركزية، ثم الايمان بـ:« **روح العالم التي كانت عنوان الكتاب الذي نشره شيلينغ سنة 1798هي التي أحدثت التقارب بينه وبين غوته، وهي التي صاغها هذا الأخير في مفهوم الأدب العالمي»**[4]، وهي أن تقر الآداب القومية بتعددية الأدب والحاجة إلى التنوع والاختلاف راجين من ذلك التناغم تحت مظلة مذهب واحد وروح عامة واحدة، فكانت الرومنسية بذلك أداة تواصل بين الآداب المختلفة ومساهمة في قيام الأدب المقارن، بروح الانفتاح والمساواة التي حملتها، كما هي جهود مدام دستايل القائلة:« **الأمم ينبغي أن تستهدي كل واحدة منها**

1- أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 50.
2-فان تيغم(بول): الأدب المقارن، تر: سامي الدروبي، دار الفكر العربي مصر، ص 19.
3-تجدر الاشارة إلى جهود فولتير الذي عرف الجمهور الأدبي بعبقرية شكسبير وسهل عملية تأثر الأدباء الفرنسيين به
4 - أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 53.

بالأخرى»[1]، حيث شجعت على المقارن بين الألمان والفرنسيين، وأثنت على أهمية التبادل الثقافي بين الشعوب[2].

2-النشأة والتأسيس:

شهدت أوروبا ثورة علمية هائلة أواخر القرن18 إلى بدايات القرن 19، أدت إلى نهضة معرفية قوامها الفلسفة الوضعية والمنهج العلمي والموضوعية، وهذا ما شجع مؤرخي الأدب أمثال هيبوليت تن Hippolyte Tainعلى تكييف المناهج الأدبية مع هذه المبادئ؛ وحاول هذا الأخير:«**أن يقيم تاريخا للأدب على أساس موضوعي، تفسر فيه الظواهر الأدبية من خلال ارتباطها بظواهر كونية وخصائص بشرية أكثر اتساعا، مثل خصائص السلالات البشرية(الجنس) والخصائص المكانية التي يعيش فيها شعب من الشعوب(البيئة) ثم الاطار الزمني الذي يتم فيه حدوث لون ما من الانتاج الأدبي(العصر)**»[3]، وهو بهذا ينقل المفاهيم من علم البيولوجيا إلى الدراسات الإنسانية، وبالتالي التجديد في أساليب دراسة التاريخ الأدبي وتوسيع المجال من الأدب القومي إلى الآداب العالمية.

كما كان لسانت بيف Sainte beuve الدور الواضح في الدفع بالدراسات في مجال الأدب إلى المقارنة، خاصة في:« **نظرية الفصائل والأنواع وفي هذا الاتجاه كتب دارون(1809-1882) كتابه المشهور عن أصل الأنواع، وبنفس الروح كتب سانت بف عن الإنتاج الأدبي**»[4]، فهو يدعوا إلى تقسم الأدب إلى عائلات وتحديد ملامح كل عائلة، على غرار ما يحصل في علم الحيوان والنبات، وهو يدعو كذلك إلى تجاوز الحدود اللغوية للآداب، دون نسيان برونتيار Brunetierوتعود إليه البدايات الأولى للدرس المقارن، الذي رأى بضرورة معرفة مستوى تطور الأدب الفرنسي من خلال مقارنته بالآداب الأخرى، ومعرفة ومتابعة التطورات الحاصلة في مختلف

1-درويش(أحمد): نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2002 ص 22

2- الصادر عام 1810De L'Allemagne- في كتابها من ألمانيا.

3 - درويش(أحمد): نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، ص 23.

4- المرجع نفسه، ص 22.

الأجناس الأدبية، دون أن ننسى أن المقارنة :« **أحد أهم ملامح القرن التاسع عشر، سواء في حقل الأدب وعلوم اللغة(النحو المقارن)، أو في حقل العلوم(الفيزيولوجيا المقارنة)**»[1]، وفي مختلف المعارف حتى عرفت مصنفات في التشريح المقارن والكيمياء المقارنة، لهذا كان ظهور مصطلح الأدب المقارن في السياق الجامعي الفرنسي، انسياقا مع الموجة العامة السائدة آنذاك، بالإضافة إلى نشاط الترجمة الملحوظ الذي ساهم في الانفتاح على الآداب الأخرى الذي ظهر في المجلات والصحف.

وكان لمصطلح الأدب المقارن أول ظهور في عام 1830 ضمن محاضرات جان جاك أمبير التي كان يلقيها في إحدى ثانويات مرسيليا تحت عنوان"**التاريخ المقارن للفنون والآداب عند الشعوب كلها**"، وهو بهذا يقرن المقارنة بالتاريخ الأدبي، وهو نوع جديد من المعارف في مجال الدراسات النقدية، وهي الفترة ذاتها التي قدم فيها أبال فيلمان محاضراته تأثير انجلترا وفرنسا في بعضهما البعض، وتأثير ألمانيا وايطاليا وتأثرهما بأدب فرنسا، والتي تعد:«**أول كتاب منهجي في الأدب المقارن**»[2]، حيث حاول أن يقدم بتسلسل تاريخي ما أخذه الفكر الفرنسي عن الآداب الأجنبية وما قدمه لها من تأثير. وبعده توالت الجهود من أساتذة بمختلف الجامعات الفرنسية، أمثال كلود فوديل من جامعة السوربون، وإكرافييه ماريه في رين وشال في باريس.

ومن فرنسا انتقلت موجة الأدب المقارن إلى مختلف الجامعات الأوروبية بداية من سويسرا، بتأثير من كتاب من المانيا لمدام دوستايل، ثم الأستاذ جوزيف هورنونغ Joseph Hormungعام 1850، الذي كان يقدم دروس الأدب المقارن في أكاديمية لوزان، إلى أيطاليا سنة 1863 ثم المجر عام 1877، وقبلها أنجلترا وألمانيا عام 1848، وهكذا وخلال سنوات أصبح الأدب المقارن مادة أساسية في كل مقرر جامعي، وكاد القرن التاسع عشر ينقضي إلا وقد سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أدرج في جامعة كولومبيا عام 1899 وجامعة هارفارد 1904.

1- أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 54.
2 - درويش(أحمد): نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، ص 24.